مبحث علمي قصير :

تقرير أصل طاعة الرسول وعاقبة معصيته في ضوء استدلال الإمام المجدد بآية {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} من كتاب الأصول الثلاثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل كتابه هدىً وبيانًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

إنَّ من أعظم ما يلحظه المتأمل في كلام الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في مصنفاته عامة، وفي كتاب الأصول الثلاثة خاصة: براعة الاستدلال، وقوة اختيار النصوص، وعمق المعاني على قصر الألفاظ. فهو يورد الآية الوجيزة، فيجعلها قاعدة كبرى، ودليلًا قاطعًا، ومفتاحًا لفهم أصل عظيم من أصول الدين، مما يدل على رسوخ قدمه في العلم، وحسن فقهه لكتاب الله تعالى، ومعرفته بمواضع الحجة والبيان.

ومن هذا الباب استدلاله بقوله تعالى:
{فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} [المزمل: 16]،
فإنها آية وجيزة حملت معاني عظيمة، ودلت على أصل جليل في تقرير أن النجاة والهلاك إنما هو في اتباع الرسول، وأن العصيان له يوجب العذاب في الدنيا والآخرة.

وهنا تتجلى نكتة علمية بديعة، وهي أن لفظ {الرسول} في القرآن كله جاء مقترنًا بنبينا محمد ﷺ في مقام الرسالة والنبوة، في خمسين موضعًا، ولم يخرج عن ذلك إلا ثلاثة مواضع يسيرة: في جبريل عليه السلام، وفي رسول الملك، وفي هذا الموضع الأخير حيث خُصَّ موسى الكليم عليه السلام بوصف {الرسول}، وهذا الاختصاص له دلالته العميقة في الربط بين رسالة محمد ﷺ ورسالة موسى، وفي تعظيم شأن الرسالة نفسها دون النظر إلى الذوات.

ومن تأمل هذا الموضع ازداد يقينًا بأن الإمام المجدد رحمه الله لم يكن يورد النصوص جزافًا، بل باختيار محكم، ودقة فريدة، وفقه نافذ في الاستدلال؛ يضع الآية في أنسب موضع، ويستحضر أقوى حجة، فيغدو كلامه على قصره بحرًا زاخرًا من العلم والفقه والتأصيل.

ولهذا فإن الشراح والباحثين في تقرير الأصول الثلاثة مدعوون إلى إبراز هذه الدقائق، وإظهار هذه اللطائف، ليقف الطالب على عظمة القرآن أولًا، وعلى عمق فقه المجدد ثانيًا، فيستفيد علمًا، ويزداد يقينًا، ويعظم في قلبه شأن الرسالة والاتباع.

ومن أعظم ما يظهر ذلك في صدر الكتاب، حيث ابتدأ بالمسألة الأولى، فقال:

[اعلم -رحمك الله - أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه المسائل والعمل بهن: الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً؛ فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار. والدليل قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا}.] انتهى .

فالإمام المجدد رحمه الله حين بدأ بـ المسألة الأولى في كتابه الأصول الثلاثة، وأورد مباشرة قوله تعالى:
{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} [المزمل: 15-16]،

فكأنه أراد أن يجعل أول ما يقرع سمع الطالب هو عظمة شأن الرسول ﷺ وطاعته، وربط ذلك بما جرى لفرعون حين عصى موسى عليه السلام.
وهذا الاختيار من الشيخ يدل على:
فقه نفّاذ، إذ وضع الآية في صدر الكتاب لتكون قاعدة تأسيسية، في أن الطاعة للرسول هي الفارق بين الجنة والنار، وفيه بلاغة في التعليم، إذ ساق القصة على وجه المقارنة، ليُشعر القارئ منذ البداية أن مصير من يعصي الرسول الخاتم كمصير فرعون لما عصى موسى، فأن القرآن لم يخصّ لفظ {الرسول} في مقام الرسالة إلا بمحمد ﷺ في خمسين موضعًا، ثم خصّ موسى في هذا الموضع الأخير، فجعل الشيخ هذا النص أول ما يستفتح به المتعلم طريقه في معرفة الأصول.

فكأن الشيخ رحمه الله التقط من الآية أصلًا جامعًا، وهو أن الله لم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولًا، وأن طاعة الرسول طريق الجنة، ومعصيته طريق النار، وأن العبرة في الرسالات واحدة، في أن من عصى الرسول فله النار، كما أخذ الله فرعون أخذًا وبيلاً.

فجعل الشيخ رحمه الله أول ما يقرع السمع ويقع في القلب هو عظمة شأن الرسالة، وأن الطاعة للرسول هي المعيار الفارق بين الجنة والنار، مستدلًا بهذه الآية الجامعة، وهذا وحده كافٍ ليدل على عمق فقهه في الاستدلال، وعلو شأنه في التعليم والتقرير.

التدبر في قوله تعالى :
{فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} [المزمل: 16]

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله في الشرح:
[فمَن أطاع هذا الرسول واستقام على دينه فله الجنة، ومَن عصى هذا الرسول وحاد عن دينه فله النار، كما قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا}، فهو مرسل عليه الصلاة والسلام: {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} أي: أخذ الله فرعون أخذًا وبيلًا في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالنار.]

لماذا خصوصية لفظ [الرسول]
هنا تتجلى النكتة البلاغية الكبرى:
فقد ورد لفظ {الرسول}, في القرآن (53) مرة، خمسون (50) موضعًا كلها في حق النبي محمد ﷺ في مقام الرسالة والنبوة والوحي، وموضع واحد في جبريل عليه السلام: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} [طه: 96]، وموضع واحد في رسول الملك: {فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ} [الكهف: 78]، ثم الموضع الأخير، وهو في مقام الرسالة أيضًا، لكنه خصّ به موسى عليه السلام: {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ}، وفيه الاهمية فتأمله .

فإن دلالة ذلك، أن لفظ {الرسول} بلام التعريف اقترن في كل المواطن برسول الله محمد ﷺ، لبيان ختم النبوة به، فلا رسول إلا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وخاتم النبين ، ولكن في هذا الموضع الأخير خُصّ موسى عليه السلام بالوصف، -

لفظ {الرسول}- تشريفًا له ورفعة لمقامه، وليتمّ التشبيه بينه وبين خاتم المرسلين محمد ﷺ.
ولهذا قال الله تعالى لموسى:
{قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} [الأعراف: 144].

ولماذا العدول عن الاسم إلى الوصف، ولم يقل: {فعصى فرعون موسى}, بل قال الله عز وجل {فعصى فرعون الرسول}, فالبلاغة هنا في تعليق الحكم بالوصف (الرسالة) لا بالاسم (موسى)، الحكمة في هذا ظاهرة ليكون التشبيه أوقع؛ فمن كذّب موسى الرسول قد هلك، فمصير من يكذّب محمدًا الرسول أن يهلك كذلك، كما أهلك الله فرعون عندما عصى الرسول موسى عليه السلام.

إن المتأمل في لفظ {الرسول} معرفًا بالألف واللام في القرآن إذا أُطلق، فالغالب أنه يراد به محمد ﷺ، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وبه اكتمال الرسالة، وفي هذه الآية في سورة المزمل استُثني فيها موسى عليه السلام، فوُصف بالرسول، ولم يقل: فعصى فرعون موسى، وذلك لأجل ما في السياق من تشبيه حال قريش بحال فرعون، وليكون الخطاب أوضح في بيان العاقبة، في أن من عصى الرسول فإن مصيره كعاقبة فرعون وأشد، لأن الذي عاند موسى أهلكه الله، فكيف بمن يعاند خاتم الرسل محمدًا ﷺ .
وهذه النكتة البلاغية، في أن العدول عن ذكر الاسم العلم موسى إلى الوصف {الرسول}, فيه تعظيم لشأن الرسالة نفسها، وتنبيه إلى أن مناط النجاة أو الهلاك ليس شخص النبي، بل هو وصفه بالرسالة، فمن أطاع الرسول نجا، ومن عصاه هلك، أيًّا كان ذلك الرسول، لكنه هنا اكتسب خصوصية إضافية لأنه جاء في مقام الموازنة مع محمد ﷺ، فكان اللفظ متناسبًا مع السياق، وكذلك التناسب مع سنة النبي ﷺ في التأسي بموسى، فقد كان النبي ﷺ كثيرًا ما يتأسى بموسى، كما قال ﷺ :
((لقد أوذي أخي موسى بأكثر من هذا فصبر))، ليعلّم أصحابه الصبر على أذى المشركين، وهذا الاستحضار إنما جاء في القرآن أيضًا، ليبين للمؤمنين أن الطريق واحد، وأن من كذّب موسى أهلكه الله، ومن كذّب محمدًا فمصيره أشد.
وفيه فضل موسى على هذه الأمة، فانه عليه السلام له فضل على أمة محمد ﷺ بتخفيف الصلوات من خمسين إلى خمس، ومع ذلك أُعطي الأجر مضاعفًا، والأنبياء متفق على أن سادات أولي العزم هم: محمد ﷺ، إبراهيم، موسى، ثم وقع الخلاف في أيهما أفضل بعد موسى عليه السلام نوح أو عيسى عليهما السلام.

إن لفظة {فعصى فرعون الرسول} تحمل في طياتها سرًا بديعًا، إذ لم تذكر لغير نبينا محمد ﷺ في القرآن إلا هنا، في وصف موسى عليه السلام، ليكتمل التشبيه بين الرسولَين، ويكون في ذلك أعظم زاجر لقريش ومن يأتي بعدهم: أن من عاند الرسول، فمآله كهلاك فرعون، أخذاً وبيلاً في الدنيا والآخرة.
إن تخصيص موسى عليه السلام بهذا الوصف في هذا الموطن الأخير في القرآن فيه تشريف ورفعة لمقامه، وتكريم له من الله تعالى، وقد صرّح القرآن بهذا الاصطفاء في قوله:
{قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: 144]

وبعد هذا التدبر والتأصيل يتبين أن الآية الكريمة {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} ليست آية عابرة تذكر قصة ماضية، وإنما هي قاعدة باقية، وحجة قاطعة، وموعظة بالغة؛ تُبيّن أن مناط النجاة والهلاك إنما هو في الموقف من الرسول، طاعةً أو معصيةً، اتباعًا أو إعراضًا.

فكما أهلك الله فرعون بعصيانه موسى الرسول، فالله سبحانه متوعِّدٌ من يعصي محمدًا الرسول بأشد العذاب وأعظم العقوبة، في الدنيا بالخزي، وفي الآخرة بالنار، ومن هنا نعلم أن الإمام المجدد رحمه الله ما أورد هذه الآية إلا وهو يدرك عظم دلالتها، وأنها أصلٌ في تقرير ما بناه من مسائل الأصول الثلاثة، التي لا قيام للدين إلا بها.

ومن اللطائف البديعة أن لفظ {الرسول} في القرآن الكريم جاء في (53) موضعًا: خمسون منها في حق محمد ﷺ، وموضعان في غير الرسالة (رسول الملك، ورسول من الملائكة)، ثم جاء هذا الموضع الأخير مخصوصًا بالكليم موسى عليه السلام، تكريمًا له وتشريفًا، وربطًا بين رسالته ورسالة خاتم المرسلين، وهذا يدل على أن القرآن بلفظه وأسلوبه يُعطي كل كلمة قدرها، ويجعل في موضعها حكمة بالغة ومعنى عظيمًا.

فسبحان من جعل هذا الكتاب العزيز لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، ومن تدبره رأى فيه من دقائق العلم ولطائف الاستنباط ما يشهد بأنه كلام الله حقًا، وأنه هدى ونور.

فينبغي للشراح والطلاب أن يبرزوا مثل هذه النكت الجليلة، ويبينوا دقائقها، لتزداد الأمة يقينًا بالوحي، وعلمًا بالرسالة، وتعظيمًا لشأن الاتباع، وليدركوا أن العصيان ليس عصيان رجل بعينه، بل هو عصيان للرسالة التي جاء بها، ومن عصى الرسول فقد عصى الله، كما قال تعالى:
{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء : 115]
وقال جل وعلا :
{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران : 32]
وقال سبحانه:
{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران : 132]